سلسلة الذين أضاءوا الدَّربَ ٢

أَيُّهَا الطِفْلُ العَرَبِيُّ لكَ تَارِيْخٌ عَرَبِيٌّ مُشَرِّفٌ، فَاقْرَأْ، وَتَعلَّمْ، واعْمَلْ.

زرياب

معلّمُ النّاس والمروءةِ

بقلم: د. سناء شعلان

رسم: عاصف نصري

زرياب
"معلّمُ النّاسِ والمروءةِ"

الأسمرُ المجهولُ

لم يكنْ يعرفُ الكثيرَ عن نفسِهِ، ولاعن أصلِهِ، بل كانَ يجهلُ (لا يعرفُ) الكثيرَ عنهما، فقدْ كانَ يجهلُ قومَهُ، ويجهلُ أهلَهُ، ولا يعرفُ لهُ أباً أو أمّاً أو موطناً، حتَّى أنَّهُ كانَ لا يعرفُ هويةَ الذي وهبَهُ (أعطاهُ) اسمَ علي، ومَنْ الذي كنَّاهُ بكنيةِ (سمّاهُ) أبي الحسن، كلُّ ما كانَ يعرفُهُ هو أنَّهُ أبو الحسن علي بن نافعٍ الملقّبُ بزرياب، وأنّهُ غلامٌ أسودُ، يملكُهُ الخليفةُ (الحاكمُ) العبّاسيّ المهديّ، وأنّهُ يعيشُ بينَ المئاتِ من العبيدِ في قصرِ الخلافةِ، ولكنَّهُ كانَ يشعرُ على الرّغمِ من وضاعةِ (حقارةِ) أصلِهِ بأنّهُ مختلفٌ عمَّن حولَهُ من العبيدِ والموالي كلّ الاختلافِ، فقدْ كانتْ آمالُهُ كبيرةً، لا تعرفُ الحدودَ، وكانَ مستعداً كلّ الاستعدادِ للكفاحِ من أجلِ تحقيقِهَا، وكانَ يحلمُ بأن يتربَّعَ على عرشٍ ما، ليسَ على عرشٍ مثل عرشِ الخليفةِ المهديّ أو الخليفةِ هارون الرَّشيدِ، ولكن على عرشٍ من نوعٍ آخر، عرشٍ يجعلُهُ بين الخالدين، ويسجّلُ اسمَهُ في سِفْرِ (كتابٍ كبيرٍ) عظمائِهَا، كانَ يتمنَّى أن يملكَ ثروةً عظيمةً، ثروةً ليستْ من النقودِ والجواهرِ بل ثروةً من الألحانِ والشُّهرةِ والمجدِ.

هو لا يذكرُ الكثيرَ عن طفولتِهِ، ولكنَّهُ يذكرُ تماماً تلكَ اللّحظةَ السّعيدةَ التي التحقَ بها بإسحاقَ الموصلّيّ، ذلك الموسيقيّ والمغنِّيّ المشهور في بغداد، والمقرَّب من الخليفةِ؛ ليأخذَ عنْهُ (ليتعلّمَ منْهُ) الغناءَ والعزفَ، فقدْ كانَ إمامَ (رئيسَ) المغنين. يومها كادَ يطيرُ من السّعادةِ؛ لأنَّهُ أمسكَ لأوّلِ مرةٍ في حياتِهِ عوداً (آلةً موسيقيّةً شرقيةً)، وجذبَهُ إلى صدرِهِ، وشرعَ (بدأَ) يحرِّكَ أوتارَهُ، ثم صدحَ (غنَّى) ببعضِ الأغاني التي كانَ يحفظُهَا.

كانَ صوتُهُ جميلاً رقيقاً، يسحرُ من يسمعُهُ، فلُقِّبَ من يومِهَا بلقبِ زرياب، وهو طائرٌ أسودُ اللّونِ جميلُ الصَّوتِ، فقد كانَ زريابُ قادراً على أن يغرِّدَ كالعصافيرِ، وأن يحوِّلَ الأحزانَ ولواعجَ (جمعُ لاعجٍ، وهو ما يدورُ في قلبِ الإنسانِ من مشاعر) القلبِ والأُمنياتِ والكلماتِ إلى ألحانٍ.

ويداهُ كانتا قادرتين على مداعبةِ الأوتار وصنعِ أعذبِ الأنغامِ والألحانِ، وكانَ على ثقةٍ من أنّ هناك المزيدَ من سحرِ الألحانِ التي لم يكتشفهَا البشرُ بعد، ولذلكَ كانَ يطيلُ الاستغراقَ في سماعِ ألحانِهِ، وتنغيمِ كلّ صوتٍ يسمعُهُ، لعلَّهُ يهبُ (يعطي) للبشرّيّةِ ما لم تعرفهُ بعد من ألحانٍ.

عندما كانَ يشعرُ بالحزنِ أو بالخوفِ كانَ يكفيه أن يعزفَ بعضَ الألحانِ ليشعرَ بأنَّهُ سعيدٌ، وبأنَّهُ يملكُ الدّنيا وما فيها، تمنّى من كلّ قلبِهِ أن يتربَّعَ على عرشِ الألحانِ، وأن يصبحَ ملكَ الطَّربِ (الغناء)، لكنّ الطريقَ إلى أمنيتِهِ كانَ طويلاً جداً.

كانَ يسمعُ الموسيقى بشغفٍ (بحبّ)، ويُقبلُ على تعلُّمِهَا على يديّ أُستاذِهِ المبدعِ إسحاق الموصلّي دونَ كللٍ (تعبٍ)، أمَّا في أوقاتِ فراغِهِ القليلةِ، فكانَ ينكبُّ (يقبلُ) على الدِّراسةِ والعلمِ، حتى غدا (أصبحَ) في فترةٍ قصيرةٍ على معرفةٍ كبيرةٍ وواسعةٍ بفنونِ الظّرفِ والآدابِ، وعالماً بالنّجومِ وبالفلكِ وبالطِّبِ وبالفلسفةِ وبالسّياسةِ، وبقسمةِ الأقاليمِ السّبعةِ، وباختلافِ طبائعِهَا وأهويتِهَا (جمعُ هواء)، وبلطفِ المعاشرةِ، وبمهارةِ الخدمةِ الملوكيةِ (خدمةِ الملوكِ).

وكانَ إلى جانبِ ذلك كلّه قد حفظَ عشرةَ آلافٍ مقطوعةٍ من الأغاني بألحانِهَا، وكانَ حلمُهُ أن يلتقي بالخليفةِ هارون الرّشيدِ، وأن يحظى (ينالَ) عندَهُ بمكانةٍ رفيعةٍ كتلكَ التي يحظى بِهَا معلمُهُ إسحاقُ الموصلّي، ومَنْ يعلمُ فقدْ يتخذُهُ (يجعلُهُ) هارون الرّشيدِ مغنياً لهُ، وكانَ يُعدّ العِدةَ (يجهّزُ نفسَهُ) لهذا اللقاءِ الذي سيغيِّرُ مجرى حياتِهِ.

وكانَ اللّقاءُ التاريخيّ المُنتظرُ بين ملكِ العربِ (هارونَ الرّشيدِ) وملكِ الطّربِ (زريابَ) في لقاءٍ لم يُكتبْ لهُ أن يتكرّرَ، فقدْ اشتاقتْ نفسُ الخليفةِ هارونُ الرّشيد إلى سماعِ الجديدِ والطريفِ من الغناءِ والموسيقى، وقد ألزمَ إسحاقُ الموصلّيّ نفسَهُ بتلبيةِ (تحقيقِ) رغبةِ الخليفةِ هارون الرّشيدِ، فقدَّمَ زرياب إلى هارون الرّشيدِ لأوّلِ مرةٍ. سألَ هارونُ الرّشيدُ الشّابَ الأسودَ إن كانَ يجيدُ الغناءَ؟ فقالَ زريابُ: نعم، أُحسنُ منْهُ ما يحسنُ النّاسُ، وأكثرُ ما أُحسنهُ لا يحسنونهُ، مما لا يحسنُ إلاَّ عندَكَ (لا يليقُ إلاّ بكَ)، ولا يُدَّخرُ (يُخبَّأ) إلاَّ لكَ، فإنْ أذنتَ (سمحتَ) غنّيتكَ ما لم تسمعهُ أذنٌ من قبل؟

تحمَّسَ الرّشيدُ لسماعِ أنغامِ زريابَ الذي رفضَ أن يعزفَ على عودِ أستاذِهِ، وفضّلَ أن يعزفَ على عودٍ صنعَهُ بنفسِهِ، وقدْ كانَ عوداً في ثلثِ وزنِ عودِ أستاذِهِ، أوتارُهُ من الحريرِ الذي لم يُغزلْ بماءٍ ساخنٍ يكسبُهُ رخاوةً.

ثم اندفعَ زريابُ يغني قائلاً:

يا أيُّها الملكُ الميمونُ طائرُهُ هارونُ راحَ إليكَ النّاسُ وابتكروا

وأتمّ قصيدتَهُ المغناةَ، عندها كادَ الرّشيدُ يطيرُ طرباً بما سمعُ، وأثنى على زريابَ (مدَحَهُ)، وشكرَ إسحاقَ الموصلّيّ على هذا اللقاء، وأمرَ إسحاقَ بأن يحسنَ إلى تلميذِهِ إلى حين يفرغُ لهُ؛ لأنّه وجدَ عندهُ ما لم يجده عندَ غيرِهِ من المغنين من جمالِ الصّوتِ، وعذوبةِ اللّحنِ، وحسنِ الأداءِ، وتوقّعَ لهُ مستقبلاً باهراً. طارَ قلبُ (فرحَ) زريابَ بما سمعَ، وكادَ يُكبُّ (ينحني) على يديّ هارونَ الرّشيدِ ليقبّلهما، أمّا إسحاق فقدْ كانتْ نياطُ (حبالُ) قلبِهِ تتمزَّقُ غيرةً وحسداً من طالبِهِ الموهوبِ.

الرّحيلُ عن بغداد

كانَ زريابُ قلقاً على الرغم من سعادتِهِ، فقدْ رأى في عينيّ أستاذِهِ ما لم يرهُ في عينيه من قبل، وصدقَ حدسُ (توقّعُ) زريابَ، فسرعانَ ما خلا إسحاق الموصلّيّ بطالبِهِ النّبيه (الذّكي)، وقالَ لهُ والغضبُ بادٍ (ظاهرٌ) في عينيه: يا علي إنَّ الحسدَ أقدمُ الأدواء (جمعُ داءٍ، وهو المرضُ) وأدواها (أشدّها فتكاً)، والدّنيا فتّانةٌ، والشركةُ في الصّناعةِ عداوةٌ، لا حيلةَ (لا طريقةَ) في حسمِهَا (القضاءِ عليها)، وقد ساءني تفوقُكَ وإجادتُكَ، وأخشى أن تأخذَ حظوتِي (منزلتي المرتفعةَ) عندَ الخليفةِ هارون الرّشيدِ. أمامُكَ خياران لا ثالثَ لهما، إمَّا أن تذهبَ عني في الأرضِ العريضةِ (تسافرُ)، لا أسمعُ لكَ خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمانَ الموثَّقةَ (الأكيدةَ)، وأنهضكَ (أساعدكَ) على ذلكَ بما أردتَ من مالٍ، وإمّا أن تقيمَ على كرهي، وإنّي قاتلكَ لا محالة (بالتّأكيد).

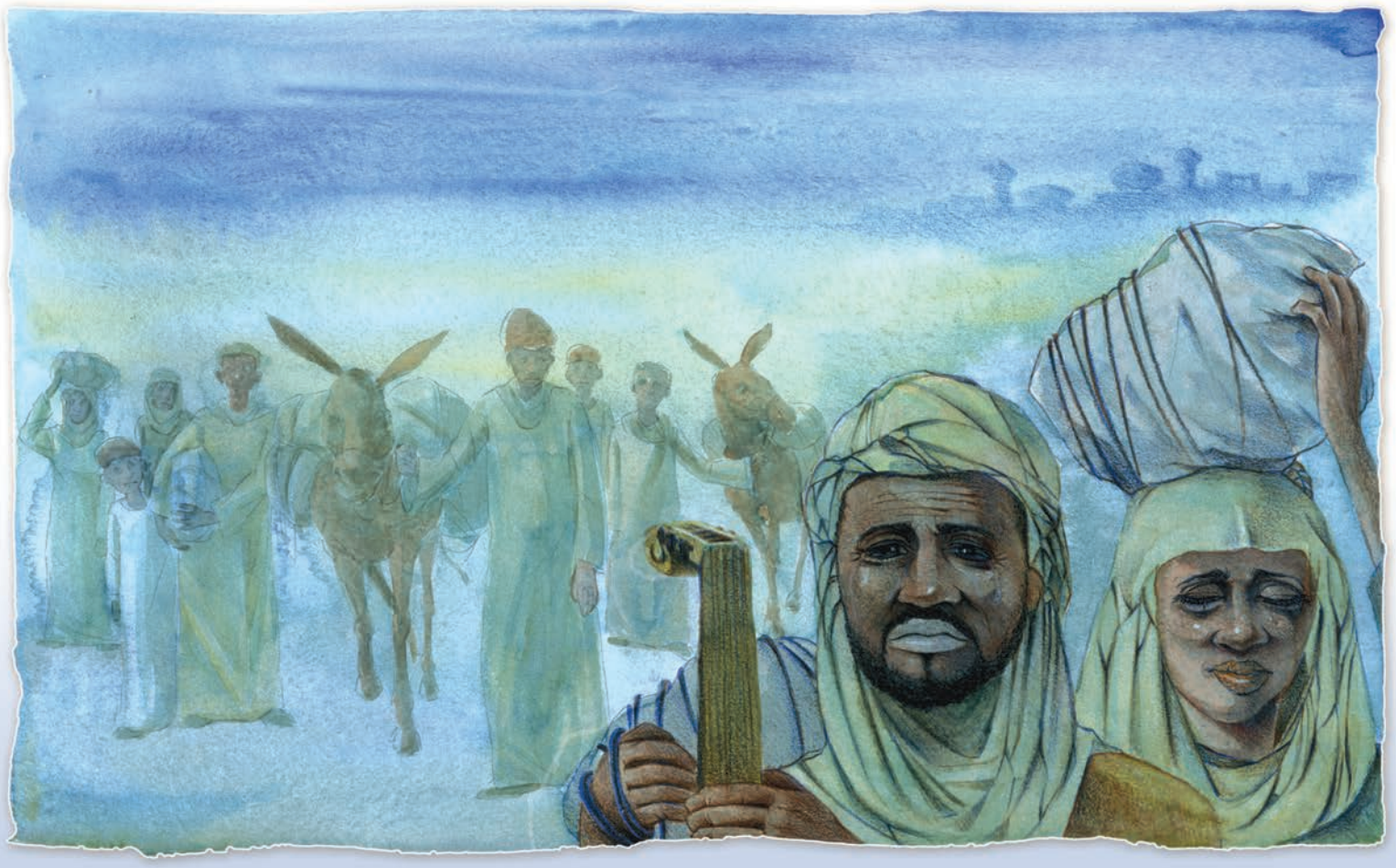

صمتَ زريابُ قليلاً، وشعرَ بحزنٍ كبيرٍ؛لأنّهُ سيفارقُ بغداد التي يحبّها، وسوفَ يهجرُ أستاذَهُ الذي تتلمذَ (تعلَّمَ) على يديه، وسوفَ يسافرُ إلى أرضٍ لا يعرفُهَا، ولكنّهُ كانَ متأكداً من أنّ حسدَ أستاذِهِ وغضبِهِ أكبرُ من كلّ شيءٍ، كما كانَ يعلمُ أنّ أستاذَهُ لهُ نفوذٌ في الدّولةِ، ومن السّهلِ عليهِ أن يقتلَهُ، وهو الرجلُ الضعيفُ الأسودُ الذي لا يملكُ عوْناً، عندها قرّرَ أن يأخذَ (يسلكَ) دربَ (طريقَ) السّلامةِ، وأن يغادرَ بغداد دون رجعةٍ، فينجو بنفسِهِ وبأهلِهِ وبفنِّهِ.

نظرَ زريابُ في عيني أستاذِهِ الذي كان ينتظرُ قرارهُ بفارغِ الصبرِ، وقالَ بانكسارٍ وحزنٍ شديدين: أقبلُ يا معلمي بمغادرةِ بغداد مع أهلي.

قالَ إسحاقُ الموصلّيّ وقدْ شعرَ بارتياحٍ عظيمٍ: وأنا سأمدّكَ (سأعطيكَ) بالمالِ لأجلِ رحلتكَ.

قالَ زريابُ: سأغادرُ بغداد بعدَ أيامٍ عندما انتهي من حزمِ متاعي وإخبارِ زوجتي وعيالي.

قالَ إسحاقُ بحزمٍ: بل ترحلُ الليلةَ مع غيابِ الشمسِ، وفي الصباحِ تكونُ بغداد لي وحدي.

قالَ زريابُ باستسلامٍ: كما تشاءُ يا أستاذي، سأرحلُ الليلةَ.

في تلكَ اللّيلةِ كانتْ بغداد تغرقُ في النّومِ والأمنِ، و كانَ زريابُ وزوجتُه وأولادُه يحملون متاعَهم القليلَ، ويخرجون متسلّلين (سرّاً) من بغداد، يحرسهُم رجالُ إسحاقَ الموصلّيّ الذين أوصلوهم إلى خارجِ أسوارِ بغداد، وصرّةُ المالِ التي وهبها (أعطاها) إسحاقُ لتلميذِهِ المطرودِ هي كلّ ما يملكُ زريابُ، الذي كانَ يشعرُ بحزنٍ كبيرٍ وهو يلقي نظرةَ وداعٍ أخيرةٍ على بغداد، إذ أدركَ بقلبِهِ الرّقيقِ أنّهُ فراقٌ لا لقاءَ بعدَهُ، وأنّهُ لن يرى بغداد بعدَ اليومِ.

في ليلتِها حضنَ زريابُ عودَهُ، وغنّى طويلاً، وقرّرَ أنّ يودّعَ بغداد بألحانِهِ الجميلةِ التي لا يملكُ غيرَهَا، و طُردَ بسببها من المدينةِ التي يحبّها.

أمّا الخليفة هارون الرّشيد فسرعانَ ما طلبَ رؤيةَ زريابَ لسماعِ ألحانِه، فأعلمهُ (أخبرهُ) إسحاقُ الموصلّيّ أنَّ زريابَ قدْ أصابَهُ مسٌّ من الجنونِ (أُصيبَ بالجّنونِ)، ولم يعدْ يعي (يدركُ) ما يفعلُ، أسفَ هارونُ الرّشيد أشدَّ الأسفِ على مصيرِ زريابَ الذي كانَ يتوقّعُ لهُ مستقبلاً زاهراً. وكانَ هذا آخر ذكرٍ (خبرٍ) لزريابَ في بلاطِ هارونَ الرّشيدِ وفي المشرقِ العربيّ كلّه، إلى أن سطعَ نجمُهُ (أُشتُهرَ) من جديدٍ في الأندلسِ (إسبانيا).

الرّحلةُ المضنيةُ (المتعبةُ)

لم يكنْ زريابُ يدري إلى أينَ يولّي وجهَهُ (يتَّجهُ)، فقد كانَ حائراً، فهو لا يعرفُ في الدّنيا إلاَّ بغداد، وأخيراً قرَّرَ أن يتوجّهَ إلى الشّام، لكنّها لم تكنْ تلبّي أحلامَهُ، لذا سرعان ما غادرها، وتوجّهَ إلى المغربِ العربيّ، الذي كانَ بلاداً جديدةً يطؤُهَا (يدخُلُهَا) العربُ المسلِمون، وتمنّى أن يجدَ فيها ما كانَ يبحثُ عنْهُ في بغداد من شهرةٍ وإبداعٍ وتقديرٍ من العامّةِ والخاصّةِ (الحكّامِ وسادةِ القومِ).

وبدأَ زريابُ رحلةً طويلةً ومضنيةً (متعبةً) إلى المغربِ (شمال إفريقيا)، تجشَّمَ (تحمَّلَ) فيها وزوجتُهُ وأولادُهُ الكثيرَ من المتاعبِ، وكادَ مالهم الذي أنفقوا معظمهُ في رحلتِهم الطويلةِ إلى المغربِ أن ينفدَ (ينتهي). كانَ المجهولُ ينتظرُ زرياباً، ولكنَّ الأملَ كانَ يحدوهُ (يدفعهُ) إلى مواصلةِ رحلتهِ، وكانَ حبّهُ لأولادهِ وزوجتهِ وعزفهِ على عودهِ طوالَ الرّحلةِ هما اللذان ساعداه على الصّمودِ، فلطالما (كثيراً) استرقَ النّظرَ (نظرَ خفيةً) إلى بنيه، وأسعدهُ أن يراهم يحاولون تقليدهُ في العزفِ على العودِ، ويردّدون بعضاً من الأغاني التي كانَ يطربهم بها.

وأخيراً وصلَ زرياباً إلى المغربِ، ونزلَ في خدمةِ زيادةِ اللهِ الأوّلِ الأغلبيّ سلطانِ (حاكم) القيروانِ بجوارِ تونس، وكانتْ الإقامةُ عندهُ طيبةً وهادئةً، وكانَ يلذّ (يطيبُ) للسّلطانِ أن يسمعَ غناءَ زرياباَ وعزفِهِ، و لذلكَ فقدْ وصلَهُ (أعطاه) بما يكفيه السّؤالَ (طلبَ مساعدةِ النّاسِ)، ولكنَّ زرياباَ بقي يشعرُ بأنّهُ طائرٌ كسيرٌ في قفصِ زيادةِ اللهِ الأوّلِ، لا يُسمحُ له بأن يطيرَ في سماءِ الموسيقى التي يعشقها.

فقدْ كانَ طموحُ زرياباَ يتجاوزُ أن يكونَ مغنّياً متواضعاً (منزلتهُ صغيرةٌ) في بلاطِ أيّ سلطانٍ، إذْ كانَ يريدُ أن يُتوَّجَ على عرشِ الطّربِ، وأن يُطلقَ له العنانَ (أن يصبحَ حرّاً)؛ ليجري كالخيلِ البرّيّةِ في حقولِ موهبتِهِ الفذَّةِ (المميّزةِ).

وشاءتْ حكمةُ اللهِ تعالى أن تقعَ خصومةٌ (شجارٌ وعداوةٌ) بين زرياباَ وسلطانِ القيروانِ الذي عابَ على زرياباَ سوادهُ (سخرَ من زرياباَ؛لأنّهُ أسودُ اللّونِ)، فما كانَ من زرياباَ إلاَّ أن غنّى قصيدةً مطلعها (بدايتِهَا):

فـإنْ تـكُ أمِّـي غـرابيـةً ... مـن أبنـاء حـام بهـا عبتني

فإنّي لطيفٌ ببيض الظّبا ... وسُمـرِ العـوالي إذا جئتني

ولـولا فرارِكَ يومَ الوغى ... لقدتُكَ في الحربِ أو قُدتني

عندها غضبَ السلطانُ غضباً شديداً من زرياباَ، وأمرَ بجلدِهِ، ثم قالَ لهُ: إنْ وجدتكَ في شيءٍ من بلدي بعدَ ثلاثةِ أيامٍ ضربتُ (قطعتُ) عنقكَ.

ومرةً أخرى حزمَ زرياباُ أمتعتهُ، وانطلقَ وزوجتُهُ وعيالُهُ في رحلةٍ جديدةٍ لا يعرفُ ماذا ستكونُ نهايتها، وقرّرَ أن يتجهَ هذه المرة إلى الأندلسِ (إسبانيا) حيثُ يشهدُ العربُ هناكَ حضارةً عظيمةً، وحيثُ يُلاقى العلماءُ والموهوبون بالاحترامِ وبالتّقديرِ، وانطلقَ إلى تنفيذِ نيتهِ (ما عقدَ العزمَ على فعلِهِ)، فقدْ عبرَ مع عائلتهِ بحرَ الزّقاقِ (المحيطَ الأطلسيّ)، ورسا في منطقةٍ تُعرفُ باسم الجزيرةِ الخضراءَ، وكتبَ رسالةً طويلةً بلغةٍ بليغةٍ وجميلةٍ لملكِ قرطبة، وهو حينئذٍ الحكمُ الأوّلُ بنُ هشامٍ، يشرحُ له فيها موهبتهُ ومقدرتهُ، فسرَّ بها الملكُ الذي كانَ معروفاً بشغفهِ (بحبّهِ) بالموسيقى، وطلبَ منهُ أن ينزلَ عليه ضيفاً كريماً.

سُرَّ (فرحَ) زريابُ بهذه الدّعوةِ، واتَّجهَ وعيالُهُ إلى قرطبة، ولكنّ المنيّةَ (الموتَ) لم تمهلْ الملكَ الذي وصلتْ أخبارُ موتهِ إلى زريابَ وهو في الطّريقِ إليه، فشعرَ زريابُ بخيبةِ أملٍ كبيرةٍ، وكادَ يعودُ أدراجَهُ (يرجعُ من حيث أتى)، لكنّ رسولَ الحكمِ إليهِ المغنيّ منصور اليهوديّ حاولَ أن يقنعهُ بأن ينزلَ في ضيافةِ الملكِ الجديدِ عبدالرّحمن الثاني الملقّب بالأوسطِ، الذي يفوقُ أباه حباً للموسيقى، ورغبةً في استضافةِ زريابَ، ونجحَ المغنيّ أخيراً في إقناعِ زريابَ بالتوجّه إلى الملكِ عبدالرّحمن الثاني، وكتبَ لَهُ رسالةً عاجلةً يخبرهُ بها بسيره مع زريابَ إليه، فجاءَ ردُّ الملكِ الجديدِ مرحباً بالضيفِ، وواعداً إيّاهُ بالإكرامِ وبحسنِ الضّيافةِ.

الحظُّ يبتسمُ لزرياب

لقدْ صدقَ حدسُ زرياب إذ توقّعَ الحفاوةَ (حسنَ الإكرام) عندَ الملكِ عبدالرّحمن الثاني، إذ خرجَ الملكُ نفسُهُ في عام ٨٢٢ للهجرةِ لاستقباله على رأسِ جماعةٍ من المستقبلين، ثم أجرى (أعطى) على زرياب راتباً شهرياً ثابتاً مقدارهُ مئتا دينارٍ شهرياً، كذلك أجرى راتباً شهرياً مقدارهُ عشرون ديناراً على بنيه الذين قدموا معه، وكانوا حينها أربعةً، وهم: عبدالرّحمن، وجعفر، وعبدالله، ويحيى. كما وهبهُ (أعطاه) قصراً يسكنُ فيه وأهلُهُ، وقطعةَ أرضٍ وبيوتاً تقدَّر بأربعين ألف دينارٍ.

وبعدَ ثلاثةِ أيامٍ دُعي زريابُ إلى تناولِ الطعامِ مع الملكِ، فوجدَ الملكُ فيه ظرفاً وذكاءً وأدباً وعلماً وموهبةً موسيقيّةً فذّةً (متفوّقةً) جعلتهُ يتّخذهُ صديقاً ونديماً.

وأصبحَ زريابُ هو قيثارةُ (آلةٌ موسيقيّةٌ) القصرِ التي تبعثُ الألحانَ والموسيقى في المكانِ، بل وفي أرجاءِ (أنحاءِ) قرطبةَ، وطارَ نجمُ (اشتهر) زرياب حتى لم يعدْ يُذكرُ بوجودِهِ غيره من المغنين المجيدين (الذينَ يعزفون بشكلٍ جيّدٍ)، مثل: منصور اليهودي، وعلون، وزرقون، والنّسائيّ المغنيّ. وطابتْ نفسُ زرياب، وشعرَ بأنّ الوقتَ قد آنَ (حانَ) ليبني عرشهُ الموسيقيّ، وليتربّعَ عليه.

زريابُ يقيمُ معهداً موسيقياً

كانتْ الحياةُ بجوارِ الملكِ عبدالرّحمن الثاني هانئةً وسعيدةً، وذلكَ بعدَ أن قدَّمَ الملكُ المالَ لزرياب، وجعلهُ من أصدقائه، عندَهَا انقطعَ (تفرَّغَ) زريابُ للعزفِ والغناءِ، حتى ملكَ العودُ عليه كلّ حواسهِ (أصبحَ أهمَّ شيءٍ في حياتِه)، حتى أنّهُ كانَ يستيقظُ ليلاً وقدْ حلمَ بلحنٍ ما، فيستدعي جاريتيه غزلان وهنيدة، ويأخذُ ثلاثتهم بعزفِ اللّحنِ الذي حلمَ به حتى يكتملَ، وعندما يرضى زريابُ عنه يعودُ إلى النّوم.

وتألقتْ عبقريةُ زرياب في قرطبة بعدَ أن أصبحَ يُلقّب بزرياب القرطبيّ، فأضافَ وتراً خامساً إلى العودِ، مما جعلهُ أعذبَ صوتاً، ولا يزالُ كذلك حتى يومنا هذا. كما جعلَ مضرابَ (القطعةَ التي تستعملُ لتحريكِ أوتارِ العودِ) العودِ من قوادم (الريشاتِ الكبيرةِ في مقدمةِ الجناحِ) النّسرِ بدلاً من رقيقِ الخشبِ، وبذلكَ أصبحَ صوتُ العودِ أنقى رنيناً، إلى جانبِ أنّ الريشَ أخفّ على الأصابعِ من الخشبِ، وأدومُ عمراً للوترِ.

كما أنّ زرياب أدخلَ إلى الغناءِ العربيّ أنواعاً عديدةً من المقاماتِ، ووضعَ قوانينَ غناءٍ جديدةٍ، التزمَ بها المغنون فيما بعد، وأصبحَ الالتزامُ

بها شرطاً من شروطِ الغناءِ الجيّدِ. وحرصَ زريابُ على نقلِ خلاصةِ فنّهِ وموهبتهِ إلى الآخرين، مما جعلهُ يفتحُ معهداً لتعليمِ الموسيقى والغناءِ في قرطبة بقي قائماً حتى سقوطِ الخلافةِ العربيةِ في الأندلسِ، وكانَ أشهرُ معهدٍ لتعليمِ الموسيقى والغناءِ في عصرِه، وكانَ نواةً (أساساً) لمعاهدَ كثيرةٍ أُنشئتْ فيما بعد للغرضِ نفسِهِ في طليطلة وبلنسية وإشبيلية وغرناطة (مدنٌ في الأندلسِ) بل وفي المغربِ العربيّ أيضاً، وكانتْ تسيرُ وَفْقَ منهجِ زريابَ و قوانينه في العزفِ والغناءِ، وهذا ما جعلَ زريابَ عموداً من أعمدةِ الغناءِ العربيّ، فقدْ وُلدتْ الأغنيةُ الأندلسيةُ المستقلّةُ في مدرستِهِ، وأصبحَ لها طابعُها الخاصُ الذي مهَّدَ لظهورِ الموشّحاتِ (هي قصائدٌ لها أوزانٌ مخصوصةٌ)، وطبعَ الأغنيةَ الأندلسيةَ بطابعِها الخاصِ، كما جدّدَ في شكلِ الألحانِ، ومضمونِ الأغاني.

ولم يكنْ زريابُ يقبلُ في معهدِهِ إلاَّ من كانَ ذا صوتٍ جميلٍ، فيه أثرُ الموهبةِ، ولمعرفةِ ذلك كانَ يطلبُ من المتقدِّمِ للالتحاقِ بمعهدِه أن يصيحَ بأعلى صوتِهِ: يا حجَّام، أو آه، فإن استمرَّ صوتُهُ بمستوى واحدٍ، يقبلُ بهِ، وإلاَّ فإنَّهُ يرفضُهُ، وينصحُهُ بعدمِ احترافِ الغناءِ (جعلِ الغناءِ مهنةً).

وبعدَ أن يتمُّ قبولُ المتقدمين في المعهدِ، يبدأُ زريابُ معهم رحلةً طويلةً من التعليمِ والتمرينِ مبتدءاً بالبسيطِ وصولاً إلى الصّعبِ، فقد كانَ يبدأُ بتعليمِ الإيقاعِ لضبطِ حركاتِ اللّحنِ، ثم الغناءِ على الإيقاعِ دون ترسّلٍ، ثم الغناء بإيقاعٍ.

ولا يخرجُ الطالبُ من معهدِ زريابَ إلاَّ وقد أصبحَ مغنياً وعازفاً بارعاً، لذا فأكثرُ المغنياتِ والمغنين في الأندلسِ كانوا من تلاميذِ زريابَ، مثل: هنيدة، وغزلان، ومتعة التي كانَ يعشقها (يحبّها بشدةٍ) الملكُ عبدالرّحمن، ومصابيح جارية الكاتبِ أبي حفص.

وكانَ أولادُ زريابَ الذكور والإناث أوّلَ تلاميذِ معهدِهِ، وكانَ عددهم عشرة، و كلّ منهم موهوبٌ، وحارسٌ لصناعةِ الغناءِ، ومعلِّمٌ لها، وقد برعَ (تفوّقَ) منهم عبدالرّحمن الابن الأكبر، وأحمد، وقاسم، وعبدالله من الذكور، كما كانتْ ابنتُهُ حمدونةُ زوجةُ الوزيرِ هاشمِ بنِ عبدِالعزيزِ متفوّقةً في صنعةِ الغناءِ على أختها الوحيدةِ عليَّة، وإن كانَ العمرُ قد طالَ بعليَّة لتصبحَ فيما بعد ركناً من أركانِ الغناءِ، ووريثةً لمجدِ والدِهَا.

وقد امتدَّ العمرُ بزرياب ليحقّقَ حلمهُ القديمَ، وليجدَ نفسَهُ متربعاً على عرشِ الطّربِ، ومعلماً لأشهرِ أعلامِهِ (لأشهرِ المغنيين) بعدَ أن حوَّلَ الغناءَ الأندلسيّ من مجردِ تقليدٍ لأغاني النّصارى، أو محاكاةً لحُداةِ (جمع حادٍ، وهو الذي يغني للإبلِ وهي سائرةٌ في رحلتِهَا) العربِ إلى فنٍ له قواعدهُ وأصولهُ وآدابهُ.

وكانَ زرياب فخوراً وسعيداً بعرشِهِ الذي صنعه بنفسِهِ واجتهادِهِ وموهبتِهِ الفذَّةِ، وكانَ متأكداً من أنّهُ قد حصلَ على ثروةٍ لا تفنى (تموتُ)، ألا وهي ثروةُ الإبداعِ.

معلّمُ النّاسِ والمروءةِ

لقدْ كانَ حلمُ عبدالرّحمن الثاني ملكُ قرطبة أن يحاكي بقصرِهِ (يشابه) حياةَ هارون الرّشيدِ في قصرِه، لذا فقدْ كانَ من أشدِ المتحمّسين لمهاراتِ الخدمةِ الملوكيةِ التي يتقنُها (يجيدها) زرياب، وكانَ قد تعلّمها في قصرِ المهديّ الذي تربّى فيه، لذلكَ فقدْ اتخذَ ملوكُ الأندلسِ زرياب قدوةً (مثالاً يقتدون به) فيما وضعَهُ لهم من آدابٍ وقواعدَ في كلّ نشاطاتِ الحياةِ، فزرياب لم يكنْ موسيقياً ومغنياً موهوباً وحسب بل كانَ رجلاً يحلمُ ببناءِ عالمٍ كلّهُ ظرافةٌ وذوقٌ وجمالٌ وهناءٌ، ليتناسبَ مع موسيقاه الراقيةِ، وغنائِهِ العذبِ.

وكانَ زرياب مقتنعاً بأهميةِ التّقدمِ والرفاه والآدابِ والقواعدِ لتشيعَ الموسيقى، وليشيعَ الغناءُ في بيئةٍ تقدِّرُ الفنَّ؛ لذا فقدْ نقلَ زرياب جميعَ آدابِ المشرقِ العربيّ إلى الأندلسِ، فقلَّدَهُ النّاسُ في كلِّ طرائقِ (جمعُ طريقةٍ، وهي الأسلوبُ أو المنهجُ) حياتِهِ، ولقّبهُ الأندلسيون بـ (معلّمِ النّاسِ والمروءةِ)؛ لما علَّمهم من اللّطفِ والرّقةِ والذّوقِ (حسنِ التعاملِ والتصرّفِ).

وقد نقلَ زرياب كثيراً من الأطعمةِ الشّرقيّةِ وطريقةِ إعدادِها إلى الأندلسِ، مثلَ: الطبيخِ المسمّى بالتفايا، وهو يحضَّرُ من لحمِ الضأنِ السمينِ، ويُضاف إليه الملحُ والفلفلُ واليسيرُ (القليلُ) من الماءِ، كما أنّهُ قد علّمَ الأندلسيين أن يشربوا في أقداحٍ (كؤوسٍ) من الزّجاجِ الشّفافِ الرقيقِ، وكانوا من قبل يشربون من الآنيةِ المعدنيةِ.

وهو منْ نقلَ إليهم طرقَ صنعِ كثيرٍ من العطورِ من أوراقِ الزّهورِ، وعلّمهم كذلكَ طرقِ العنايةِ بنظافةِ ملابسِهم، وكانَ له آراءٌ متّبعةٌ في اختيارِ الملابسِ لتوافقَ الفصلِ.

وقدْ غدا (أصبحَ) زريابُ ظاهرةً طريفةً في غرناطةَ، فقد كانَ الكلُّ يقلِّده في ملبسهِ ومأكلهِ و طرازِ تصفيفِ شعرِهِ، فكانَ بذلكَ مبتدعاً لأحدثِ التّجديداتِ في اللّباسِ والمأكلِ وتصفيفِ الشّعرِ، وكانَ رائدَ قرطبةَ في التّجديدِ والإبداعِ والأناقةِ، ولم تعدْ تُذكر الأندلسُ إلاَّ ويذكرُ معها زريابُ.

عرشٌ من الألحانِ

في يوم ٨٥٢/٨/١٣ للهجرةِ، وقبلَ وفاةِ الخليفةِ عبد الرّحمن الثاني بأربعين يوماً أسلمَ زريابُ الروحَ (ماتَ)، وفارقَ الدّنيا بعد أن تربَّعَ زمناً طويلاً على عرشِ الطّربِ، وتركَ للبشرّيّةِ إرثاً عظيماً من الألحانِ والأغاني والأشعارِ وقوانينَ العزفِ.

لقد نزلَ عن عرشهِ الذي أمضى حياتَهُ في بنائِهِ، وتركَ موسيقاه خالدةً بعدَهُ إلى الأبدِ، ترشدُ الموهوبَ، وتحثُّ الكلَّ على التّصميمِ والإرادةِ والإبداعِ. وقد أكملَ أبناءُ زريابَ وابنتاه المسيرةَ من بعدِهِ، وأشادوا من جديدٍ بناءَ الغناءِ على الأساسِ (القاعدةِ) الذي بناه والدهم زريابُ عليهِ.

لقد كانَ زريابُ شمعةً أنارتْ طريقَ اللّحنِ والغناءِ لأمةٍ كاملةٍ، فخلَّدَ الموسيقى، وأحبّها ووهبها كلَّ عمرِهِ، فوهبتهُ الخلودَ، وجعلتهُ من الذين حملوا النِّبراسَ (النّورَ) لأمتِنَا العربيّةِ الإسلاميّةِ عبرَ تاريخِهَا الماجدِ.

لوّن معنا